معنى الحياة والتأمل في الموت
قضايا في فلسفة إميل سيوران

The Meaning of Life and the Contemplation of Death: Issues in the Philosophy of Emil Cioran

د. هشام مبشور

جامعة ابن طفيل

المغرب

hichamdescarte@gmail.com

معنى الحياة والتأمل في الموت
قضايا في فلسفة إميل سيوران

د. هشام مبشور

ملخص:

يَنظر هذ المقال جليا في فلسفة إميل سيوران، وذلك من خلال قضايا مصيرية طرحها الفيلسوف الروماني للنّقاش. فكانت مدار تفكيره المستمر حتى باتت اليوم مشغلة العصر ولا مبالغة. منها فكرة الولادة، وطُرق التقليل من التناسل، وسبل التحكم في التّزايد البشري. مع ما رافق ذلك من تطور للنقاش العمومي العالمي حول مسألة الحياة والموت، تجلى خصوصا بإعادة النظر في الموت على ضوء ما يسمى اليوم في الطب "بالموت الرّحيم". وليس ببعيد عن كل ذلك مسألة معنى الإنسانية، وطُرق تعريفها، وكيفيات النظر إليها بعيدا عن التصورات المثالية التي تحددها بالانتماءات القبلية المغلقة؛ من قبيل ربطها بلغة أو ثقافة أو حتى وطن.

كل ذلك وغيره كان مدار نظر هذا المقال الذي قسمناه إلى ثلاثة محاور متعددة القضايا ومتقاطعة المسائل من مثل معنى الحياة والموت، قيمة الحياة، العقم الاختياري، الإنسانية وقلق الموت.

الكلمات المفاتيح: معنى الحياة، مسألة الموت، العقم الاختياري، الإنسانية.

Abstract:

This article clearly examines the philosophy of Emil Cioran through the crucial issues that the Romanian philosopher raised for discussion, and which were the focus of his continuous thinking until they became the preoccupation of the era today, without exaggeration. These include the idea of birth, ways to reduce reproduction, and ways to control human growth. With the accompanying development of the global public debate on the issue of life and death, especially by reconsidering death in light of what is called today in medicine "euthanasia". Not far from all of this is the issue of the meaning of humanity, ways to define it, and ways to view it away from the idealistic perceptions that define it with closed tribal affiliations; such as linking it to a language, culture, or even a homeland. All of this and more was the focus of this article, which we divided into five axes with multiple issues and questions, such as the meaning of life and death, the value of life, voluntary sterility, humanity and the anxiety of death.

Keywords: Meaning Of Life, The Issue of Death, Voluntary Sterility, Humanity.

1- تقديم:

هل تستحق الحياة أن تعاش؟ كثيرا ما يطرح هذا السؤال في لحظات التأمل الفلسفية، وفي الخلوات الصّوفية خصوصا عند لحظات الضعف واليأس البشري. وعليه، يؤكد هذا التساؤل مدى جدوائية عيش الحياة وقيمتها، ويستشكل القدرة على الصبر عن متاعبها ومشاقها، دون أن يدعو للتخلص منها. فكثيرا ما كانت الإجابة عن هذا السؤال مرْبكة ومقلقة للوعي البشري، الأمر المفسر لم تجنب كثير من المفكرين الخوض فيه من الأساس.

أجاب إميل سيوران Emil Cioran (1911-1995)[1] عن هذا التحدي، محاولا تفسير قيمة الحياة بوضع أهمية عيشها موضع مساءلة واستشكال، مبرزا حدودها، ومظهرا أهمية الموت ودوره المركزي في سردية الحياة الكبرى. فكيف نَظر سيوران للحياة والموت؟ وما نوع العلاقة الرابطة بينهما؟ هل للولادة أدوار ووظائف إيجابية أو سلبية؟ أ للحياة معنى على أساسه تستحق أن تُعاش؟ لماذا يجب رفض الولادة وما ينتج عنها من روابط الأبوة والأمومة والبنوة؟ ما المقصود بالكآبة؟ وهل لها دور في بناء أخلاق جديدة؟

حاولنا الإجابة عن هذه الأسئلة في هذا المقال، وذلك من خلال خمسة محاور ومقدمة وخاتمة. المحور الأول معنون: بالموت بالحياة والحياة بالموت. بينا فيه التكامل الحاصل بين الحياة والموت، وأبرزنا فيه قيمة الموت أمام ضعف الحياة وعجزها عن تلبية جميع مَطالب الإنسان الملّحة. أما المحور الثاني فاخترنا له عنوان: الحياة وفقدان المعنى، تتبعنا فيه كيفية رسم سيوران صُورة قاتمة للحياة أوصلها إلى حالة فقدانها للمعنى، لذلك دعا إلى عيشها ضمن مستويات دنيا. المحور الثالث أخذ لنفسه شعار: رفض الانجاب وقلق الموت. رسخ فيه سيوران فكرة العقم الاختياري للقضاء على الحياة وأشكال معاناتها. هي بداية القيامة أو قل: القيامة الصغرى عندما نكون ضد الموت، وهو عنوان المحور الرابع. فيما خاض المحور الخامس والأخير المسطر تحت عنوان الإنسانية ومعاناة الوالدة المتجددة، بينا فيه الترابط الحاصل بين تمثل الإنسانية كاستمرار وموتها أفرادا. إنسانية تتأسس على الولادة بما هي نقل للموروث الثقافي والديني واللغوي والأخلاقي والسياسي عبر فعل الإنجاب. فإلى أي حد كانت فلسفة سيوران ضد الحياة؟

1- إميل سيوران Emil Cioran (1995 - 1911) هو فيلسوف وكاتب روماني، نشر أعماله باللغتين الفرنسية والرومانية. ولد في قرية رازيناري، إحدى قرى ترانسيلفانيا الرومانية والتي كانت في تلك الفترة تابعة للإمبراطورية النمساوية المجرية. وقد كان والده قساً أرثوذكسيا بالقرية، وكانت أمه لا تخفي سوء ظنها بكل ما يتعلق بالدين واللاهوت على الرغم من عيشه تحت ظل هذا التناقض الغريب غير أنه ظل يحمل عن طفولته انطباعاً فردوسيا، فقد عاش تلك الفترة على إيقاع الطبيعة متأملا الخضرة ومنصتا إلى حكايات الرعاة. قام بتأليف 15 كتاباً إلى جانب المخطوطات التي عثر عليها بعد وفاته.

اضطر للرحيل سنة 1921 إلى سيبيو المدينة المجاورة، حيث المعهد الثانوي، وإذ أصبح والده رئيس الكنيسة .اضطر ثانية للرحيل إلى بوخارست لدراسة الفلسفة، وهنالك عرف لأول مرة أول أعراض المرض الذي سيرافقه كثيرا وهو الأرق. وقد عانى من جراء ذلك كثيراً حتى فكر في الانتحار، على أنه سرعان ما حول ليالي الأرق تلك إلى وسيلة للمعرفة. فحينما كان في سن الثانية والعشرين ألف كتابه الأول «على قمم اليأس» الذي نشر عام 1934. لتتوالى كتاباته مثل: رسالة في التحلل، مثالب الولادة، اعترافات ولعنات...استمت فلسفته بالملمح السوداوي والتراجيدي. https://ar.wikipedia.org/wiki.

حاولنا الاشتغال على الموضوع من خلال منهج زاوجنا فيه بين جمع النصوص وتحليلها ثم المقارنة بينها وفق مدخل فينومينولوجي يفسر النصوص مما تظهره من إشارات ومعاني على السطح. ومنهج هيرمونطيقي يسبح في لا مفكر النصوص، ويُسائل مسكوتاتها قصد أن يعيد بناءها من الداخل.

2- الموت بالحياة والحياة بالموت:

الحياة أشد كثافة وقوة وانطلاقا، لدرجة إن كل من يعيشها لا يشعر بها وبوقعها. متسارعة تجاه حتمية الموت، لذلك أفضل طريقة لعيشها -حسب إيميل- هي أن نموت بالحياة ونحيا الموت. يلاحظ في هذا السياق أن سيوران جعل الحياة مطية يومية لملاقاة الموت والتعود عليه، فبدل أن نحيا كل يوم بعيداً عن الموت يصير العكس هو الصحيح؛ أي أن نحيا كل يوم من أجل الموت. فنعتبر الحياة مقلوبةً، وجدت أصلا من أجل الموت. وعليه، تغدو كل لحظاتها تشبه الأنهار التي تصب في البحر. ما يعني أن الموت أكبر من الحياة، هذه الأخيرة ترتسم بوصفها شكلا من أشكاله، ولونا من الوانه. يسمها سيوران بالامتلاء الكامل بالموت. ولعل أول مظهر من مظاهر هذا الامتلاء يتجلى في سلوك البشر سبيل ألا تعمير الحياة ولا الإقبال على الولادة والتكاثر الطبيعي لبني البشر على غرار الحيوان. وعلى مستوى الذات يجب التقليل من متاعها ولذاتها ورغباتها إلى الحدود الدنيا، والتجرؤ أيضا على مواجهة حياة القبور، والسكن بجنبها. فسيوران ظل صديقا وفيا منذ طفولته لدفان قدم له جمجمة للعب بها، دفان عوّده على رؤية الجثة في حالتها الطبيعية؛ في حالتها البيولوجية؛ في حالتها الأصلية بعيدا عن مقولات الروح. إن الجسد الميت هو أصل الجسد الحي[1]. فلا شيء يمكن أن يريحنا من صخب العالم، وفراغ معناه إلا التفكير في الموت. تأسيساً عليه، يغدو الموت مخلصا وفي نفس الآن دافعا للابتعاد عن الحياة، لا سيما وأن تحقيق أي شيء فيها مشوب بالنقص وعدم الرضا.

تحقيق كل شيء يشبه حالةً من الإشباع التام والمطلق، وهو إشباع يولد حالة من النفور. ولولا هذا النفور لما سئمنا ومللنا رغم ما بذلناه من مجهود كبير في تحصيل هذا الشيء. عبثية الحياة تظهر ههنا بالضبط، إذ بعد بذل مجهود مضاعف من أجل الحصول على أمنياتنا وطموحاتنا وأحلامنا ها نحن أولاء بعد ما حققناه من مشاريع شخصية، ما فتئنا نملها ونسأم منها من أجل أمنيات أخرى لا تنتهي؛ أي أنّه لا وجود لإشباع تام في الحياة. خصوصا وأن القدرة على العيش تعني القدرة على الموت[2]. ولعل ما يجعل الحياة محتملة ومقدور عليها هو أننا نعيش فيها مثل الأموات لا ندرك أبعادها وسياقاتها ومعاناتها. نعتبر كل هذا وجد من أجل اسعادنا. وبالتالي فغياب الوعي يثبت غياب الموت، لذلك من الأفضل أن يفقد الإنسان الوعي، وذلك رغبة في أن يحيا. ولما كان تحقيق هذا الأمر شبه مستحيل بقي له فقط أن يموت ليحيا حياة أفضل من هذه الحياة؛ أو على الأقل من أجل أن يتخلص من مثالبها ومشاقها. يقول معلقاً سيوران: "البطولة هي الرغبة في الموت، ولكنها أيضا الرغبة في الحياة حين يصبح كل يوم أثقل من الأبدية. فمن لم يكابد غير المطاق

1- سيوران، إميل: **على مرتفعات اليأس**، ترجمة: عبد الوهاب الملوح، ط1 (بيروت: دار صفحة سبعة للنشر والتوزيع، 2020)، ص13.

2- Cioran, Emil, **La Tentation d'exister**, (Paris: Gallimard, 1956), Pp.67-68.

الحياتي لم يعش أبدا"[1]. الشخص المكابد داخل الحدود البشرية للحياة لا يعتبره سيوران محتملا للحياة ومهتبلا لآلامها ومتقبلا لمآسيها، بل يسمى المكابد "بالمجالد" Gladiator عندما يستحمل ما يفوق طاقته.

يعيش فقط مثل هؤلاء الذين تعدوا حدود البشرية، وتفوقوا على أنفسهم. "احتملوا الاحتمال، وصبروا على الصبر"[2]. إن هؤلاء على التحقيق هم الأجدر على صبر-والصبر كنه الحياة- ودرك معنى الدخول للبطولة قصد تحقيقها، والذهاب في المنافسة إلى ما وراء المنافسة، إذ ليس المهم الانتصار في معركة الحياة المفتقدة للمعنى، بل الأكثر أهمية هو الاستمرار في المنافسة إلى حين الإعلان عن انتهائها، لاسيما وأن المنافسة الحقة تبتدئ لحظة الانتهاء من المنافسة؛ أي لحظة الاستسلام. عندما يتفوق المتنافسون حينذاك نعلم أن المطاق البشري بلغ منتهاه، وما بقي من المتنافسين هم المتجاوزون لهذا المطاق. المطاق رمز المكابدة، رمز العيش إنه بهذا المعنى رمز للموت. فما فوق المنافسة يتجاوز حدودها، ولعله ما بعد الحدود يأتي الموت المبجل. يضرب سيوران عن هذه الحالة أمثلة واقعية. فيصرح "لماذا يفهم السكير بشكل زائد؟ لأن السكر معاناة. لماذا يرى المجنون بشكل زائد؟ لأن الجنون معاناة. لماذا يشعر من هو في العزلة بشكل زائد؟ لأن العزلة معاناة[3]". كل هؤلاء يدفعون بشكل طبيعي أو غير طبيعي قواهم إلى ما فوق المحتمل والمطاق البشري؛ أي إلى ما فوق المعاناة والآلام التي تحد من فاعلية مجمل الكائنات البشرية، فيكون هذا المحتمل أو المطاق نقطة نهاية الطاقة البشرية.

إن الإبداع وكل أشكال الإمتاع تأتي بالتواقت مع هذه الحالة الفوق بشرية، وإذن لا نستغرب بعد هذا أن تتم صناعتها ولو على النحو غير الطبيعي؛ كما يفعل السكير أو متعاطي المخدرات أو في حالات الجذب عند الصوفية أو وضعيات التحير والشطح... إلخ. ولعل العظماء والأنبياء كانوا من هذا الصنف الذي يدفع قواه إلى ما فوق ما هو بشري، وذلك بحصد المعاناة والاستمرار فيها، والصبر عليها بمكابدة مشاقها، وكذا المداومة على رصد ثغرات النفس، مع الزيادة في مقاومتها، وكأن هذا الشأن ورد يومي يساعد على الخروج من التناهي البشري، ويدفع الى معانقة هذا الما فوق الإنساني أو الإنسان الأعلى بلغة نيتشه.

الإنهاك والاستنزاف هو ما تقوم به الحياة تجاه كل كائن يعيش في ربوعها، يرضخ لقواها يوما عن يوم ويستسلم لقوانينها. وكلما عاش ازدادت هشاشته، ومعها قلت مقاومته للموت. وكأن الحياة تساعد على إضعاف الإنسانية في الإنسان[4]. وبالتالي تسهل عمل الموت وتمكن له بطريقة غير مباشرة، حصوصاً وأن حضوره مشترط بضعف قوى الكائن البشري، وقلة مقاومته. لذلك بدل هذه المقاومة الانهزامية والانكسارية يُؤشر سيوران إلى ضرورة التقليل للحد الأدنى من سعرات الرغبة في العيش، والإلتذاذ المتواصل بالحياة إلى نمط "نوسطالجية" الموت. بما هو نمط تستقر فيه كل ذات على حافة الحياة، وعلى هامش الوجود الأصغر؛ أي وجود عبر الموت. بينما الوجود الأكبر هو الوجود بعد الموت. دون هذه

1- سيوران، إميل: **غسق الأفكار**، ترجمة: عبد الوهاب الملوح، ط1 (بيروت: دار صفحة سبعة للنشر والتوزيع، 2020)، ص153.

2- Cioran, **La Tentation d'exister**, Op.cit. P.38.

3- سيوران: **غسق الأفكار**، مرجع سابق، ص154.

4- Cioran, **La Tentation d'exister**, Op.cit. P.5.

"النوستالجية" الميلودرامية للموت نصبح مجرد أشياء منزوعة الإحساس، خالية من الشعور بقيمة الحياة، وذلك لأنها أفرغت الموت من كل طاقة إيجابية، على اعتبار أن الموت أحد أكبر مؤسسي الحياة، وأقوى داعمي أفق اللامتناهي. بمعنى آخر، الانتماء للموت هو بالضرورة انتماء للحياة، غير أن الانتماء للحياة لا يعني بالضرورة الانتماء الموت. الموت بهذا المعنى، هو ما يضفي معنى على الحياة، ويمنحها قيمة، وذلك بتهديده المستمر ببقائها. وعليه، أفضل سبيل لعيشها يكمن في التفكير المستمر فيه، وتبويئه المكان والمكانة اللائقة به بوصفه هدفاً عاماً للحياة ولكل نشاط بشري، لا سيما وأنه منتهى كل فعل، وغاية كماله. فمثلا حد الشبع الجوع، وحد الصحة المرض... ولنتصور الحياة بلا جوع أو مرض أو ألم أو معاناة، فما المعنى الذي سيبقى للشبع والصحة والسعادة؟

3- الحياة وفقدان المعنى:

البحث الدائم عن مقوم للاستمرار ودافع للبقاء في الحياة يعني أنها بلا معنى. تعاش أولا من أجل إيجاد هذا المعنى، لذلك يختلف الناس في سبل معنى الحياة، فيرتسم أمام كل شخص مبرر للحياة. "فهل الحياة تحتاج كل هذه المبررات من أجل أن تعاش؟"[1]. إجابة عن هذا السؤال يلاحظ أن كل ذات تتوسل أدوات عديدة من أجل أن تضفي عليها معنى يتناسب مع جزئيات وتفاصيل عيشها، فمن يجعلها وجدت من أجل الولادة أو السعادة أو الصحة... لكن عبثا يحاول كل شخص التمسك بها من خلال هذه المسوغات، ويفشل في كل مرة عندما يوهم نفسه بمعنى معين يعيش من أجله. لن يستطيع أحد تدجين فكرة الموت واللامعنى والعبث بسوق عديد مبررات، خصوصاً أمام الخواء والفراغ والبياض الملم بها بلغة سيوران. أبداً يحاول الناس إيجاد منفذ أو مخرج من فكرة اللامعنى والخواء والملل الذي يشعرون به في كل لحظة توغلوا في الحياة إلا توغلوا في العزلة والانفصال عنها. وبذلك سيحاولون باستماتة تخدير أنفسهم بجرعات المعنى الزائف والمبررات الواهمة.

أثرية الحياة ومأتميتها تجعل من احتفالاتها بمثابة استراحة محارب. يجب عليه أن يعود أقوى في الحرب حتى يستحق هذه الاستراحة، كأنها تهب له استراحة مشروطة بالعودة لساحة الحرب أقوى، مثل من يطعم ويسقي عبده المحارب رغبة في المال الذي يجنيه منه مع كل انتصار؛ أو من قبيل من يطعم حماره من أجل أن يستمر في جر عربته. ويمكن تشبيه الأمر بانتحار الفراشة، إذ لا أحد يعتقد أن الدقائق المعدودة التي تعيشها يمكن أن تضفي معنى على حياتها، ولو أن الفراشة تظنها حياة تستحق أن تعاش، وتستأهل منها المقاومة والمجاهدة لأخر رمق. عندما نفكر في حياة الفراشة تبدو لنا عبثية لأنها تقتطف يسيرا من الزمان. وكذا الأمر بالنسبة للحياة البشرية بالمقارنة مع الزمان الممتد هي مجرد لحظات. الأمر سيان سواء تواصلت الحياة وتمددت أو انقطعت وتقلصت. يقول سيوران في هذا الباب: " الخلود تنازل عن الأبدية يهبه الموت للحياة، غير أننا نعرف جيدا أنه لن يمنحها ذلك؛ لأن الكثير من الكرم سيكلف الحياة"[2]. فالكرم على هذا

1- Cioran, Emil : **Entretien**. (Paris, Gallimard, 1995). P.165.

2- سيوران: **غسق الأفكار**، مرجع سابق، ص42.

المستوى شدّة العطاء في الجانب الذي يعتبره الناس سلبا وضداً في الحياة. الكريم شخص يصرف في التفكير في الموت، ويعمل على التقليل من الحياة. هو بخيل في الحياة وكريم في كل ما يتعلق بالموت.

الكرم مثل الحزن يجب تحمله والاعتناء به، فليس من السهل التعود على المعاناة واجترار الألآم، والصبر على كل أشكال المرارة. وذلك لكون الحزن يختبر مدى قدرة الفرد على الانعزال عن الحشود، والتجاسر على العيش في وحدة. وبالتالي الحزن يُحرض على الموت قبل الموت، ويمكننا من التعود على الألم والمعاناة والتطبع بهما. فغربة العالم يجب أن تدرك داخل هذا العالم لا خارجه[1]، حيث أن الغربة شعور عادي وطبيعي، يتولد عن الإحساس بعدم الانتماء لهذا المحيط الطبيعي والاجتماعي. ولعل مثل هذا الشعور يراود الإنسان في عديد من اللحظات من قبيل لحظات الحزن والمعاناة. "الغرابة هي تلك التي فهمنا من خلالها أن الكائنات ظلال، وأن كل شيء بلا جدوى، في ابتعادنا عن العالم للبحث عن المعنى"[2]. المعنى يوجد خارج العالم ووراءه، لذلك فالبحث عنه عند سيوران يتعدى التخلص من العالم، والبحث عن البدائل. والتخلي إما يكون جزئيا وفي كل لحظة بالبحث عن ألوان المعاناة، وتذوق جملة من الألآم، والاستمتاع بالأحزان، والفرح بالمرض والجوع[3].

تبدأ الرغبة في الحياة عند التخلص منها نهائيا، وبدل التساؤل عن ماهيتها وأصلها وفصلها، لا محيد عن التساؤل عن جوهر اللاحياة وكيفيات ولوجها. فعلى أس اللاحياة نشأت الحياة التي تغرينا كزانية غير مرغوب فيها، تنصاع لفعل المستحيل من أجل أن تولد الرغبة وتشعلها في نفوس المرغوب فيهم. ثم ما تلبث عندما تشبع هذه الرغبة المتوهمة حتى تشتعل مرة أخرى. فهل من الممكنة الوقاية من الرغبة وكبح جماحها؟

ذلكم السؤال يجيب عنه سيوران بأن الرغبة قابلة للتطويع متى ما لم يرغب فيها من الأصل؛ أي ألا نرغب في الزانية(الحياة) من الأول، وذلك عبر مقاومة اغراءاتها المتوهمة، لا سيما وأن ضعف هذه المقاومة إعلان صريح عن انتصار الحياة. وعن هذا يقول: "سأكتشف الحياة في امتلائها حين أسرع في التفكير ضدي، حين لا أكون موجودا في أي فكرة كانت"[4]. التفكير الضدي (Pensée à Contre) هو نوع من التفكير النقدي الفوقي، المتأسس على عتبة ما يمكن أن يفكر فيه، إنه ما يكون بين بين... على التخوم بين موضع التفكير والتفكير، لذلك هو أشبه ما يكون بمحاكمة الفكر من جهة ممارسته للتفكير. فتأملي في الفكر من شأنه أن يُمهد له الطريق لإعادة النظر في قاموس الفكر ومفكراته، ومدلولات اللافكر ومسكوتاته؛ أي أنه هو ما يسمح بالنظر النقدي في لا مفكر الفكر ويتجاوز حدوده.

يؤاخذ سيوران على كل من عارضه من العامة أو من محترفي الفكر (Professionnels de la pensée) بلغة أرندت التمجيد الذي تحظى به الحياة عندهم فقط لأنها تجعل الكائن يحيا ويبقى محافظاً على توازنه بغض الطرف عن مدى جودة هاته الحياة، ومدى قدرتها على تلبية الحاجات والرغبات البشرية. وبالفعل

1- سيوران، إميل: **مثالب الولادة**، ترجمة: آدم فتحي، ط1 (بيروت: منشورات الجمل، 2010)، ص81.

2- سيوران: **غسق الأفكار**، مرجع سابق، ص68.

3- Sora, Mariana : Cioran jadis naguère, (Paris, de L'Herne, 1988). P.44.

4- سيوران: **غسق الأفكار**، مرجع سابق، ص76. سيوران، إميل: مثالب الولادة، مرجع سابق، ص112.

جودة الحياة معيار مفضل عند سيوران لقياس حقيقة الحياة، معيار قادر على معاينة تقدمها أو تخلفها. جودة الحياة تقل بالمرض والحزن والتوتر والجوع...وما دامت هذه الأشياء ملتصقة بها، وتشكل جوهرها وماهيتها كانت جودتها أقل. تضعف مع ارتفاع منسوب هذه المنغصات، ولا تنقص بانخفاضها. المرض مثلا يقلل من جودة العيش، لكن بارتفاعه ترجع الأمور إلى نصابها دون أن يشعر الشخص بالسعادة أو الفرح. حياة تقل نبضاتها ومؤشراتها، فكلما تمسك الشخص بها دفعته من مكان أعلى إلى مكان أدنى. بكلمة واحدة جودة الحياة تقل مع التوغل فيها من الصحة إلى المرض، ومن الطفولة إلى الشيخوخة ... وفي ذلك عتاب من سيوران للحياة، ودعوة صريحة منه للتفكير في طرق التخلص منها وشل حركتها[1]، فعلى الأقل إن لم تكن البدايات في الحياة قوية فليكن هذا شأن النهايات. على الأقل لنتجاسر على اختيار نهاياتنا على النحو الأنسب، ولتكن نهايات مأسوية وكارثية، تعبر عن نشوة التخلص من عبثية الحياة وخوائها.

هذا اللاكثرات ولامبالاة لا يعني عند سيوران عدم الرغبة في العيش بقدر ما يثبت الرغبة في توقيف استمرارية المعاناة والمشاق[2]. ولنتصور أن الحياة تختبر مدى قدرتنا واستطاعتنا. ثم ما تلبث عند مقاومتنا على إعادة الكرة أكثر من مرة، وبجرعات زائدة من اليأس والحزن والمعاناة. فما الذي يصبر الكائن البشري على تحمل هذه المعاناة؟ من الذي يجعل منه قادرا على الاحتمال؟ هل هو على دراية بأجله المحتوم الموت؟ وإن كان على معرفة بمصيره لماذا لا تعبر جل أفعاله وتصرفاته عن هذا الأمر؟ يجيب في هذا المستوى الفيلسوف الروماني: " لا أفكر في الموت، بل هو الذي يفكر فيَّ. كل ما فيه من حياة يتنفس من خلالي(...) ولست أكون إلا بقدر ما يدافع الموت عن مطلقه، ويفرض التعالي، وينزل عن طيب خاطر نحو الإخفاق المؤقت. أبحث عن الحياة في الموت أيضا، وليس لي من هدف آخر غير اكتشافها باعتبارها ليست حياة"[3]. قد نتمثل الحياة من منطلق رغباتنا في عيشها بمثالية وعلى أفضل نحو، دون أن يعني ذلك أننا نتصورها على الوجه الحق، حصوصاً أن كل تمثل يعبر عن انتمائه للحياة، أي نتمثل الحياة داخل الحياة. ما يثير التساؤل حول مدى موضوعية واستقلالية هذا التمثل. إنها أشبه بالمحب الذي يوجد تحت سطوة المحبوب حيث يتمثل محبوبه كامل الأوصاف، لا عيب أو نقص فيه. هكذا تمثل غير محايد ولا مستقل لأنه يعبر عن حالة الشخص النفسية ولا يعكس واقع الحال.

بناءً عليه، لابد لنا من تقبل فكرة الموت، والتعايش مع جميع مؤشراته (المرض، الحزن، الألم، المعاناة...)، بل أكثر من هذا يجب البحث عن هذه المكنزمات والديناميات، مع التمتع بها بوصفها جزءاً أصلياً من الحياة. هو عمقها الثاوي وحقيقتها العميقة، فما يجعلنا أحياء هو أننا نعاني ونمرض ونقاسي.... فإلى أي حد نستطيع حب هذا الجانب الأصيل في الحياة الذي يذكرنا بمحدوديتها وهشاشتها؟ هل نملك القدرة على مقاومة مغريات الحياة والسعي للموت؟

1- سيوران، إميل: **تاريخ ويوتوبيات**. ترجمة: آدم فتحي. ط1 (بيروت: دار الجمل. 2010). ص105-106.

2- Sora, **Cioran jadis naguère**, Op. Cit. Pp.21-22.

3- سيوران: **غسق الأفكار**، مرجع سابق، ص86.

هنالك الكثير من الناس الذين يفضلون الموت السريع، سعيا إلى التخلص من الألآم والأحزان والمعاناة. وهؤلاء على الأقل قاوموا في المستويات الدنيا الحياة. ولعل أعلى أشكال المقاومة كامنة في أننا سنجرب العيش فعليا على النحو الذي نختار لا على الشكل المفروض علينا من طرف الناس. فعلى الأقل سنكون أحراراً في اتخاذ قرار يخص مصيرنا[1]. وقلنا أعلى أشكال المقاومة لأن عيش الحياة والانصهار في بوثقتها من شأنه أن يخدرنا، وينسينا اندثار وتآكل كل مقومات الحياة المعاينة من حولنا، فما نبنيه في أيام وسنوات يتهدم مع توالي صروف الزمان. غير أنه بوجود الحب يغطي على هشاشة الحياة، فنرتبط أكثر بجنسنا ونجعل من أهدافه أهداف لنا. نرتبط بأصلنا وبمن نكون؟ وما نحن إياه؟ مع الحب يُجعل لحياتنا هدف وغاية، فعلى الأقل يوجد ما يمكن أن يصبرنا، ويدفعنا لاحتمال المصائب والمشاق إلى لحظة مجيء الموت غفلة. ألا يعني هذا الترحيب بالموت -حسب سيوران- أننا نروم تصحيح خطأ الولادة؟ فكيف تمثل سيوران فعل الولادة والإنجاب؟ هل هو فعل محبوب ومفضل ومدعو له؟

4- رفض الانجاب وقلق الموت: العقم الاختياري:

العقم الاختياري أفضل رد على مثالب الولادة وأحزان المجتمع[2]، وهو إلى ذلك أكبر داعم للموت في تقليله من مأساة الحياة ومواساة عيشها، لذلك قبل أن يتوقف الإنجاب بشكل طبيعي عند محطة من محطات الإنسانية، وخارج اختيار الإنسان في مرحلة الشيخوخة أو عند الإصابة بمرض يجب أن يتم بشكل اختياري وعن قناعه ووعي بتفاهة الحياة وعبثتها. إن العقم هو هذه الرغبة في عدم استمرار الشخص الفردي الهرموني، المنتقل من جيل إلى جيل في شكل بويضات وحيوانات منوية قابلة للتخلق والتشكل في صورة حياة بئيسة[3]، صُبغت بألوان المعاناة والآلام والأحزان، وما زالت تعبئ ترسانة شرورها لتدك كل أمال وأحلام الأفراد.

العقم مبني على قناعة مفادها إن الشخص لم يعد يملك ما ينقله لشخص آخر، لا يستطيع منحه سعادة العيش أو أن يدرأ عنه على الأقل مشاق الحياة. " لكن الطفل يبدو له غير معقول البقاء شأنه في ذلك شأن الأسرة والوراثة وقوانين الطبيعة. كلها عبث لا طائل من ورائه. هكذا يمكنه وقد تخلى عن المهنة والذرية أن ينجز نهايته... هو أخر الأقانيم"[4]. حق توصيف العقم الاختياري بأنه كارثة طبيعية، لكونها رسم نهاية لنوع الانسان الأكثر تطوراً، والذي قاوم عبر التاريخ كل أنواع المعاناة والمقاسات، من حروب وأوبئة وأمراض... وبالرغم من محاولاته إصلاح هذا الأمر لم ينجح، لذلك فمن الأفضل عدم الحضور أصلا للحياة. ولنفترض أن شخصا دعاك لحضور حفله فيها كل أنواع الملذات مصحوبة بالآلام والمعاناة، وتنتهي لا محالة عند نقطة اللاعودة هل كنت لتحضر لها أصلا؟ إجابة سيوران هي أن العاقل منا سوف يفضل عدم الحضور لها أصلا، إذ رغم مغرياتها فهي مليئة بالأم؛ فالأكل يسبقه الجوع ويلحقه الجوع، والصحة يصحبها

1- سيوران، إميل: **اعترافات ولعنات**، ترجمة: آدم فتحي، ط1 (بيروت: منشورات الجمل، 2018)، ص85.

2- Laignel-Lavastine : Cirion, Eliade. **L'oubli du fascisme**, (Paris : P.U.F, 2002). P.67.

3- Sora, **Cioran jadis naguère**, Op. Cit. P.15.

4- سيوران، إميل: **مثالب الولادة**، ترجمة: آدم فتحي، ط1 (بيروت: منشورات الجمل، 2010)، ص211.

المرض... حتى إذا حضر للحفلة هذا الضيف المدعو بدون إرادته فبإمكانه أن يغادرها في أقرب وقت. وعليه أن يقرر عدم إحضار أي شخص آخر سيعيش في نفس وضعه. ولعل عدم الإحضار هو العقم الاختياري.

يقرر سيوارن إن جنون الإنجاب سيختفي لا محالة يوما ما بسبب الملل، وبسبب نزوع الإنسان إلى الكمال الذي لا يجده في هذه الحياة[1]، ورغبته في تملك كل شيء، وهو ما لا تتيحه له الحياة، الأمر المفسر بحث الإنسان عن أنواع أخرى بديلة عن الحياة، إلا أنه لم تكن له الشجاعة لحد الآن على اختيار عدم الحياة من الأصل. وما زال متذبذبا قلقا يتربص بالحياة. سؤال العقم يتحول إلى سؤال: هل يقدر الرجل على مقاومة إغراء المرأة؟ هل يستطيع اقتطاف المتعة الجنسية دونما الحاجة للإنجاب؟

يجيب سيوران إن الأمر ممكن، والفصل بين الإنجاب والرغبة الجنسية يستطاع خصوصا مع تطور الطب، فقد عاش عديد من الذكور دون إناث، وعاش كثير من الإناث دون ذكور وإلا فوجودهما لا يعني دائما وبشكل ميكانيكي الإنجاب. والدليل على ذلك وجود حالات العقم الطبيعي التي باعدت بين الجنسين، واختارت الطبيعة في هذا المجال ألا تكثر من الجنس البشري بالمقارنة مع باقي الأجناس، إذ "التكاثر مرتبط بباقي الكائنات وليست مسألة بشرية محضة"[2]. وفي هذه الحالة (العقم الطبيعي) جعلت الطبيعة العلاقة بينهما أكثر تجريدا؛ أي رابطة بعيدة عن التركيز عن مقاصد خارجية عن ذاتها. نفهم أن العقم يجعل من الجنس ممارسة غاية في ذاتها. لا نستغرب بعد هذا أن تكون القداسة ملتمسة عند القدسين والقديسات عدم ممارسة الجنس، محرم عليهم الإنجاب أو الانتساب للبشر، بل يجب أن يبقى نسبهم إلهي محض، كما مُنع عليهم الاقتراب من الجسم ولذاته. هو فناء عن الجسم من فرط الإيمان به. تأسيسا عليه، تأتي القداسة لتخلص من الدناسة، والدناسة ههنا كامنة في الحياة ولذاتها. على هذا المنوال يغدو التمسك بالدين تعبير عن رغبة في البقاء. وبالتالي "الصحة هي السلاح الحاسم ضد الدين. اخترعوا الإكسير الشامل لتضمحل السماء بلا رجعة"[3]. النقصان والهشاشة رمز التفوق على كل تعالي أو تقديس، لا سيما أنه يتيح التأمل في حقيقة الكون، ويسمح أكثر بالانغراس فيه، والتجذر داخله. فالنقص أحد المؤشرات الدافعة للتقديس، لذلك الصحة التامة والجسم المتناسق من الصعب أن يقدس ويخضع لإملاءات السماء. لا معصومية لا تمنح القداسة لأي كائن يمنح نفسه حق التواجد الفوقي المتعالي.

إن فكرة النقص والمحدودية لا تقارن بفكرة أخرى هي فكرة الكمال، فكلاهما في آخر المطاف من جنس الأفكار، ولعل من ميسم الأفكار أن تشتغل داخل منطقة التناقض الذي لا يعني إلا أن لكل فكرة حدود ونهايات تقف عندها. وبالتالي الكمال فكرة ناقصة لحاجتها إلى فكرة النقص، وذلك قصد أن تتبلور وتصير أوضح. فما أن يتلاشى وميض هذه الفكرة حتى يغيب التفكير في المتناهي، وتعاش الحياة على الأرض بوصفها الحياة الوحيدة الممكنة، والقابلة للتحقق[4]. وحتى مفهوم الألوهية يجب أن يعاش هنا والآن فوق الأرض.

1- Cioran, **La Tentation d’exister**, Op.cit. P.19.

2- سيوران، إميل: **اعترافات ولعنات**، مرجع سابق، ص60.

3- سيوران: **رسالة في التحلل**، ترجمة: آدم فتحي، ط1 (بيروت: دار الجمل، 2021)، ص225.

4- Sora, **Cioran jadis naguère**, Op. Cit. P.40.

التقديس إنما يجب أن يقدس الإنسان، وتقديس الحياة على الأرض. يكتب سيوران بهذا الصدد: "ما إن يتلاشى المطلق حتى يرتسم وميض فردوس وارد"[1]. فردوس تشكل على أنقاد عالم آخر غطى الجسم وكساه بالإسبال البالية، والهدف من ورائه إنما هو جعل الجسد محرماً ومدنساً في مادته الأولى. في هذا الباب لعبت الملابس دور إضفاء الحشمة والتنكر للجسم ولمادته، فمن المعيب رؤية الجسد عارياً في شكله الطبيعي. تغطي الملابس على هشاشة الجسد. "الجثة التي ترتدي ثيابا تتنكر لنفسها، وتتخيل الأبدية دون أن تملك منها غير الوهم"[2]. ومعناه أنه عندما نرتدي قبعة ونلبس ربطة العنق وحذاءً ثم نناسق بين هذه المكونات، فمن بإمكانه بعد ذلك أن يفكر في أصلنا العاري، وفي بدايتنا المتعثرة في بطن الأم؟ بهذا المعنى قربت الملابس الإنسان من الاعتقاد بوجود يوم آخر مفضل عنده كما تفضل الملابس. الملابس إذن فصلت بين الطبيعة والثقافة، بين الحياة على الأرض والحياة فوق السماء. كما فصلت بين الحياة والموت، ورغبت في الحياة، مكرهة في الموت. ولا أدل على ذلك إن الحياة تفضل المرتدي على العاري وتفاضل بينها. فالإضافة إلى أن العاري يعرض نفسه لخطر الموت، كذا يُعرضها للاستهزاء الاجتماعي. فهل من الأجدى لها الهروب أو من الضروري لها المواجهة في هذه الحال؟

اللاجدوى كامنة في الهروب من الموت، والحقيقة توجد في مواجهته بشجاعة وإقدام، كلها دوافع قوية تعمل لصالح امتصاص صدمة الموت، والتفكير به بطريقة بعيدة عن التعصب للحياة. إن التفكير الضدي يحمل عناصر هشاشته ومنطق ضعفه في داخله، لا سيما وأن نقيضه يوجد وجوداً مستقلا لا وجوداً تابعا. نقصد أن رصيد الحياة مبني أساساً على وجود نقيضها الموت. وكلما تخلت الحياة عن هذا النقيض، ازدادت قوةً وصلابةً وفقدت معناها. مما يعني أن الحياة جَعلت من نفسها داخل هذا الأسلوب -ذي البعد الواحد- صنما يعبد ويقدس لا لشيء إلا لأنه لا بديل عنها. لذلك ليس من السهل تهديم هذا الصنم، يحتاج الأمر إلى وقت يماثل الوقت الذي تقضيه الحياة للترويج لنفسها، ولتشجيع الناس على الاستمرار فيها عبر فعل الولادة. فليس من السهل في شيء إخفاء هشاشتها، والتستر عن نقط ضعفها باحتراف[3]. تخيل حجم الفراغ والخواء الذي تخلفه حالة الموت، مما يجعل من الصعوبة بمكان التخلص من الرؤية السوداوية له. الأمر الذي أفضى في المقابل إلى كرهه وتنزيه الحياة، بل أدى إلى التشبث بها على الرغم من عبثيتها وخوائها وابتذالها. هذه اللاوجهة تخلق بالتبع ألا جدوى، فهما صنوان، إذ عندما تنطفئ الرغبة في الحياة تطفأ معها الرغبة في الموت.

إن الحي كومة أمراض وعلل تسببت فيها حياته لحياته، وتعلق الحي بالحياة مثل تعلق الملاكم بمباراة يتلقى فيها باستمرار مجموعة من اللكمات، ويمني نفسه بالانتصار، ليستمر في تلقي اللكمات. تكالبت عليه المعاناة بنسب مختلفة، وتمددت عبر جرعات تقدم له يومياً وعلى مدار الساعات، ورغم ذلك يتقبل هذه

1- سيوران: **رسالة في التحلل**، مرجع سابق، ص285. وسيوران، إميل: دموع وقديسون، ترجمة: عبد الوهاب ملوح، ط1 (المملكة العربية السعودية: دار صفحة السابعة للنشر والتوزيع، 2020)، ص40-41.

2- سيوران: **رسالة في التحلل**، مرجع سابق، ص286.

3- سيوران، إميل: **تمارين في الإعجاب**، ترجمة: آدم فتحي، ط1 (بيروت: منشورات الجمل، 2021)، ص125.

الحياة في كليتها بنفس مطمئنة ومنشرحة. غفليته هذه وعبثيّته سمحت بإثارة علامات الاستفهام والتعجب حول مصدر هذه الرغبة في الحياة بنقائصها ونقطها السلبية. الغفيلة ههنا تعبير عن غياب الهدف من العيش والعبثية تكمن في عيش الحياة والاستمرار فيها بدون هدف واضح[1]. الكارثة العظمى الثاوية وراء كل ذلك هو الاستمرار مع نفس المرض، وتقوية انتشاره داخل جسم إنساني منهك بالتعب، وهش لأبعد مدى، وقابل للزيادة في حجم الانهيار مع تكالب أمراض الحياة عليه. جسد غير قادر على مقاومة الموت، فما بالك بمقاومة الحياة؟

مكمن الصعوبة في مساعفة الحياة للإغراءات التي تقدمها، ومسايرة اللذات المزيفة التي تدفع بها في وجه كل كائن فكر في التخلص منها. كلها أشياء تنفر الكائن البشري في الموت، وتحببه ولو بعد حين بالحياة والعيش. يقول سيوران في هذا الصدد: "ليست الحياة ممكنة إلا بفضل عصور مخيلتنا وذاكرتنا "[2]. من النص نتبين أننا لا نتخيل أعظم من الحياة، ولا نتصور ما يمكن عيشه خارجها. فمسار المخيلة، وعمل الذاكرة ينشأ من ملاء الحياة. لهذا ننسى معاناتنا داخلها وآلامنا وأحزاننا بمجرد أن نتلقى خيراتها وملذاتها. تلعب الخيرات دور صنارة الصيد التي تمسك بتلابيبنا. إن ضعف الخيال وقوة الذاكرة هما ما يبقياننا في الحياة، ويقويان من وجودنا. لذلك أول سبيل للتخلص من مثالب الحياة، والتحلل من مشاقها كامن في تقوية الخيال، وتمتين الذاكرة. من شأن هذا الصنيع إبقائنا بالقرب من الولادة والموت، باعتبارهما الضامنين الفعليين لكشف حقيقة الحياة وزور ادعاءاتها. فالحنين إلى هذا الوجود المنسي وغير المتخيل هو الدليل على وجود الموت. وهو الإمكان الذي لم يفكر فيه أحد من الفلاسفة أو المفكرين أو رجال الدين لحد الساعة. فإلى أي حد من المحتمل أن يشكل الموت أحد أنواع الحياة المناقضة للحياة التي نعرف؟ وهل نستطيع أن نجد عند الموت ما لم نجده عند الحياة؟ للإجابة عن سؤالين يصرح إميل: "أن نعيش في حالة انتظار فيما هو ليس بعد متشكل؛ يعني أن نرضى باللاتوازن المحفز الذي تفترضه فكرة المستقبل. كل حنين هو تجاوز للحاضر"[3]. يغدو الحنين إلى المستقبل حنين إلى ما ليس هو الماضي والحاضر بعد. حنين إلى شكل من الزمان منتظر، يأتي بعد الحاضر وما وراء الماضي. ولعل تلكم الرغبة في تدارك ما حصل في الماضي كامنة في عيش حياة مخالفة لما حصل الآن وفي الماضي. كما أن الحنين يمثل شكل من الحسرة والاحتجاج على ما وقع. وتنديد ضمني بالحدث وزمانه ومكانه. إذ ما كان له أن يقع وفي غفلة من الأمر حصل، مستغلا شروطا مادية. لذا فإرادة التغيير تبدأ من عدم الرضا بهذا التسلسل الزمني الخارج عن إرادة ذات ورغباتها[4]؛ أي أن الحياة هي ما فوق رغبة الذات وخارج إرادتها. لهذا كثيرا ما تجتاحها مشاعر من قبيل: الكآبة، الحزن يعتبرها سيوران إيجابية لا سلبية كما يظنها باقي الناس.

1- Laignel-Lavastine, Cirion, Eliade. **L'oubli du fascisme**, Op, Cit. P.63.

2 - سيوران: **رسالة في التحلل**، مرجع سابق، ص50.

3 - سيوران، إميل: **لو كان آدم سعيدا**، ترجمة: محمد علي اليوسفي، ط1 (عمان: أزمنة للنشر والتوزيع، 2014)، ص58.

4 - Laignel-Lavastine, Cirion, Eliade. **L'oubli du fascisme**, Op.cit. P.33.

بمعنى أخر، هذا النوع من الوعي المفارق مجرد هوس بمكان أخر بديل وفوقي، يغني عن عبث هذا العالم المنسي. الحنين تحديدا إحساس أبدي بالبعد عن البيت الأصلي. وهو إلى ذلك شعور ضمني بالاغتراب داخل هذا البيت. فالعزلة ضامن للعودة من الغربة. كما أن الشعور بالاغتراب عن هذا العالم قد يفيد في تقهقرنا إلى عالمنا الأصلي الذي منه جئنا، وانفصلنا عنه مباشرة بعد حدث الولادة. لذلك لا نستغرب من وضع الإنسان ليوتوبيات وجنات فردوسية، وظيفتها تعويضنا عن خسائرنا في هذا العالم. تغطي هذه اليوتوبيات عن نقائص وشوائب الحياة. الأمر الذي يفسر لماذا تصورها الإنسان أتم وأحسن عالم؟[1].

بناءً على ما تقدم، لا مراء في تصور النفس خارج هذا العالم، وُجدت من أجل عالم أخر. وهيأت جسميا وروحيا لملاقاة عالم ما بعد الولادة. " فكل من لم يتصور إلغاء نفسه من العالم، وكل من لم يشعر باللجوء إلى الحبل إلى الرصاصة إلى السم أو البحر، هو سجين ذليل في العالم أو دودة تزحف على الجيفة الكونية"[2]. هل فكر أحد في العزلة؟ هل استنطقها الفلاسفة وباحت لهم بأطوارها وخصائصها وميزاتها؟ أمن الممكن الاقتراب منها والابتعاد عن الناس بنفس المسافة؟ كيف للعزلة أن تعيد اكتشاف الذات لذاتها؟

قد لا تتوقف الأسئلة والإشكالات والعواصات التي تثيرها العزلة عند سوران عن الإنطراح والتشابك. خصوصا وأن الرجل تمسك بها بوصفها حلا ومخرجاً أمام عبث الوجود وفوضى الموجودات، واعتبرها حلقةً من حلقات العودة إلى ما قبل الولادة، وذلك لكونها منحته مزيدا من التفكير الهادئ في الموت وفي معطيات الوجود الناقصة. فكل متع الحياة لا تكتمل أبدا وتحضر ببطء، في المقابل تأتي مثالبها مجملة ومفصلة وعلى وجه السرعة. العزلة منحت فيلسوف الروماني هدوء وسكينة بعيدا عن الناس. إنها لحظة حاسمة من تشكل وعي الفيلسوف، مكنته من ملاقاة نفسه إراديا، لذلك احتفى سيوران بها سرا وهو ينشد وقت الفراغ. يكتب في هذا الصدد: "حين نحطم روابطنا، لفرط شهيتنا إلى العزلة، يكتنفنا الفراغ، ما من شيء بعده؟ ما من أحد؟ بمن سنفتك إذن؟ أين نعثر على ضحية طويلة النفس؟ إن من شأن حيرة مثل هذه أن تفتحنا على الله على الأقل، ومعه نحن واثقون من القدرة على الانفصال باستمرار "[3]. العزلة بقدر ما تبعد الناس عن بعضهم البعض، وتتيح مزيدا من أوقات الفراغ والتأمل وتكاد توقف الزمان، بقدر ما تمنح علاقة واسعة بالإله. وكأن العلاقة مع الإله تشترط إبطال العلاقة مع الناس لتتم. منطق الانفصال عن الكثرة والاتصال بالواحد، منطق حَكم تصور العزلة عند سيوران.

العزلة هي شكل من أشكال الموت. إنها الموطن الأول والأوحد الحقيقي في الوجود الذي يظل صامداً وفي مكانه، ينتظر ضعفنا وهشاشتنا وتعاستنا ويأسنا ليطلعنا على حقيقة أننا ماضين إلى المنتهى. فلا وطن لنا إلا الموت. يصرح الفيلسوف الروماني: "بعد أن تبحث عبثا عن وطن يتبناك، تنكفئ على الموت لتستقر أخيرا كمواطن في هذا المنفى الجديد"[4]. نتخبط باستمرار وبشكل مثير للدهشة في التعاليم الدينية، والحفلات

1- Cioran, **La Tentation d’exister**, Op.cit. P.50.

2- سيوران: **رسالة في التحلل**، مرجع سابق، ص67.

3- سيوران، إميل: **المياه كلها بلون الغرق**، ترجمة: آدم فتحي. ط1 (بيروت: منشورات الجمل. 2003)، ص134.

4- المرجع نفسه، ص182.

الصاخبة، والألعاب... عسى أن نتمكن من الهروب من العزلة التي تلاقينا بأنفسنا، بل إن هذه الأشياء كلما جربناها أكثر وهربنا إليها هجمت علينا العزلة، وغرست أنيابها فينا. يضيف سيوران في هذا المستوى: "كل ما عاشرنا البشر اسودت أفكارنا، فإذا عدنا إلى عزلتنا وبحثنا عن النور، سنجد في العزلة الظلال التي أنشأتها تلك الأفكار"[1]. كما قلنا سالفا إن مخالطة الناس ومعاشرتهم، وتطوير العلاقات معهم ليس بديلا عن العزلة أو نقيضاً مقيداً لها، إنما هي مقرب منها ودافع محفز لها. فعديدة هي المرات التي نلاقي فيها الناس ونخاطبهم بقدر ملاقاة الذات ومخاطبتها حول نفس المواضيع. النقاش يأخذ مستويين عمودي مع الناس، وأفقي مع الذات. إذ لولا المجتمع ما فكرنا في العزلة والابتعاد عن الناس وعن عالمهم. ولولا كثرة العلاقات لما فكرنا ولو للحظة في إمكان قطعها من الأصل.

ظل سيوران يشعر بالعزلة والغربة بعيدا عن مكانه الأصلي، لا عن الناس والمجتمع. فالعزلة بالعيش بعيدا عما قبل الولادة لا بالابتعاد عن الناس[2]. نلاحظ أن إميل يعيد النظر في تعريف العزلة ومحدداتها. فمنذ ولادته امتدت هذه الغربة، وزاد حجمها مع ابتعاد الرجل عن لحظة ما قبل الولادة. أحس الفيلسوف الروماني بالخيانة والغدر ممن أبعده عن مكانه الطبيعي والأصلي. الغربة الميتافيزيقية أقصى أنواع المعاناة التي كابدها الفيلسوف، ويُعانيها الناس من ورائه. الأمر الذي يثير التساؤل: لماذا لم يرغب إميل في واقع ما بعد الولادة وفضل عليه العزلة في انتظار التخلص منها بالموت؟ ما السبب الكامن وراء عدم تعلقه بالحياة وتعلقه في المقابل بالموت؟

يستطيع عالم ما بعد الولادة أن يرين علينا بجمالياته، فيظهر علينا ويزين نفسه أمام عيوننا. دفاعاً عن استمراره منع الانتحار وتم تحريمه، مذكيا رأي رجال الدين والكنيسة وجميع شعائر وشرائع الأرض، وعلى الرغم من ذلك لم تستطيع الكنيسة برجال دينها تقديم حجة واحدة مقبولة ضد الانتحار، وضد كل من فضله لعدم احتماله لعذاب الحياة. فمن الذي سيبقيه ويحافظ عليه متى فقدت الحياة رونقها وجماليتها؟ كل هذا صعب وكاد أن يستحيل قبل أن نستفيق في المراهقة والشباب لنجد أنفسنا مشدودين للحياة بخيوط أخرى غير خيوط الإغواء، مثل: المجتمع، الأبناء، الأصدقاء، الرفقاء...

الانتحار تسريع لوتيرة الموت، لذلك لا يرى سيوران أي فرق بين أن تموت ببطء وموتاً طبيعياً، وأن تموت بسرعة وموتاً إرادياً. الكل موعود بالموت في آخر المطاف. إلا أن خصيصة الانتحار أنه تفنن في الإماتة، وإبداع في أشكالها بما يحفظ للكائن توازنه. ويضمن له اختيار كيفية الموت. بناء عليه، يغدو الانتحار انتفاضة ضد هشاشة الحياة. انتفاضة كبرياء كائن يستشعر كرامته المهدورة، وينتصر لما بقي حياً في إنسانيته التي تأبى التلاعب بها من أي طرف كان. ولئن كان الانتحار يستطيع سوقناً لعالم ما بعد الولادة، غير أنه عاجز عن ملاقاة الموت بشجاعةٍ وصلابةٍ. لذا يبات الانتحار من الأساليب الملتوية للتخلص من الحياة لا يليق بكائن

1- سيوران: **لو كان آدم سعيدا**، مرجع سابق، ص183.

2- Sora, **Cioran jadis naguère**, Op. Cit. P.44.

عاقل[1]. ولعل الأقرب للتخلص من هاته الحياة من يفكر في سبل الموت، ويتفنن في تخيل أساليبه، مثل: الشنق أو السم أو حبل أو حادثه... يتخيل لا يعني يمارسها علانية بأمر الانتحار.

تأسيساً على ما سبق، لا يكفي التفكير في الموت، وإن كان خطوة أولى لا محيص منها، بل لا محيد عن تكثيف التفكير في طرقه واقتحام سبله، الأمر الذي يجبرنا على تطويعه أكثر. مرونة الانعتاق تبدأ في انطباق هذا الوعي مع الموت، ثم ما يلبث هذا الانطباق يتحول إلى تغلب من فكرة الموت على فكرة الحياة. وعليه، لو كان لنا هذا الوعي منذ الولادة لتم التفكير في ديناميات الموت والطرق المؤدية إليه. وبالتالي لقلت خسائرنا عندئذ، لكن سطوة الحياة وقوتها كشفت ضعفاً بشرياً يتجلى في الخوف من الموت، والعمل على إبعاده بكل السبل الممكنة. ولو بالتفكير في الانتحار دون ممارسته، لاسيما وأن دوره كامن في تأدية مهمة معاكسة لإغراءات الحياة، وذلك حتى تتساوى مطالب الحياة والموت أمام الكائن البشري. عندئذ له كل الحرية في أن يختار بينهما بكل موضوعيةٍ وحياد.

شكل الانتحار عامل انفصال وانشطار عن الحياة مثله مثل الألم، ووازع على التفرد والانعزال عن الهُم والنحن. الألم يذكرنا بأننا أحياء متجهين إلى الموت أو أحياء وجدوا من أجل الفناء. يقول سيوران: "لا يوجد في كل ما يربطنا بالأشياء رابط وحيد لا ينحل ولا يتلاشى بفعل الألم الذي يحررنا من كل شيء"[2]. الألم وسيلة تدمير لكل وظائف آلية تقوم بها الحياة بشكل سطحي. الألم يبين حقيقة الإنسان الضعيف. يذكرنا بالموت ويقربنا أكثر من ذاتنا الكامنة وراء الجسد، ولعل التأمل في هذه الحقيقة يحتاج إلى التألم بأكبر قدر ممكن. ولعل هذا هو أحسن تعامل معه، يمكن من استثماره على أفضل وجه. الألم امتلاك لمنفذ ممكن. إنه امتلاك لفكرة الهرب، مثله مثل الانتحار كلاهما يساوي عبث الحياة، ويدفع تجاه التكفير عن ملكاتها بآلامها.

يتصور سيوران أن كل ما تمنحه الحياة من ملذات يوازي آلامها. وإذن لا ميزة لها تجعلها قابلة للتفضيل. الأمر الذي يجعل الوجود متكافئ مع العدم، واللذة متساوية مع الألم، والحزن صنو الفرح.... وكأن الفرح والمتعة مجرد معابر للحزن والشقراء والألم. هذا التناسب هو الضامن فعلياً لتوازن الحياة ومن ثمة بقائِها، غير أن هذا التناسب يمج كل مدافع عنها. وهو الأمر نفسه الذي يؤاخذه سيوران على الفلسفة وعلى الفلاسفة[3]، الذين لم يصلوا لعمق الحياة ولحقيقتها الأبدية، وذلك لكونها مبنية أصلا على التناقضات التي تنتصر في كل مرة لأحدها على حساب الأخر. منطقها الداخلي يتوجه رأسا إلى نسف نفسها بنفسها دون حاجة إلى تدمير خارجي من الموت. "الحياة هي ما يمكن أن يتحلل في كل لحظة. إنها الفقدان الرتيب للنور وذوبان مسيخ في الليل، بلا أطياف ولا أمجاد"[4]. تغدو حقيقة الحياة أكثر من أن تُطاق، إذ كلما استمر الشخص فيها ازداد تحللا وانهياراً. البقاء داخلها، على عكس مجموعة من التصورات، يقرب كثيرا من الخروج

1- Cioran, **La Tentation d'exister**, Op.cit. P.81.

2- سيوران: **رسالة في التحلل**، مرجع سابق، ص74.

3- يقول: "الأنساق الفلسفية الكبيرة ليست في نهاية المطاف سوى لغو لامع. ما الفائدة أن نعرف أن طبيعة الكائن تتمثل في إرادة العيش، في الفكرة أو في الخيال الراجعين إلى الإله أو إلى الكيمياء؟ مجرد تكاثر كلمات. نقلات خفية للمعنى. إن ما هو ينفر من عناق الشفهي". **رسالة في التحلل**، مرجع سابق، ص85-86.

4- سيوران: **رسالة في التحلل**، مرجع سابق، ص93.

منها. فتدمير الحياة لا يأتي من عنصر يوجد خارجها، بل من داخلها[1]. فالصحة فيها تقود للمرض، والفرح يسوق للحزن. نهارها مسبوق بليل بهيم، ورتابتها أكثر من أن تطاق. يعيد فيها الزمان سيرورة الألآم والمعاناة والأحزان، لاسيما وأن هذه هي العملة المتداولة فيها. الماضي داخلها مثل المستقبل والحاضر، كلها أزمنة تحمل مزيداً من الألآم والأحزان للقاطنين فيها. وبالتالي الزمن فيها متوقف، والصيرورة تبين أن الأيام والأسابيع والأعوام مجرد أوهام وأخيلة لا تمت بصلة لحقيقة العودة الأبدية لنفس الشيء[2]؛ أي عودة الالتذاذ المصحوب بالملل. كل شيء قابل للتدمير والتحلل في حياة هشة، وزمن متردد، وموت قادم لا محالة. فهل يغني التمسك بالحياة عن الموت؟ ألا يعني التشبث بها احتمالية الإصابة بيأس كبير وصدمة قوية عند قرب موتنا؟ هل من الأفضل لنا أن نتخلى عنها أو أن تتخلى هي عنا؟ أيهما الموقف الأسلم؟

مثل هذه المواقف الصعبة والمتحدية ثم المأساوية هي ما يحكيه ديوجين الكلبي." أدخله رجل ذات يوم بيتا فاخر الأثاث، وقال له إياك أن تبصق على الأرض. وكان ديوجين قد رغب في البصاق، فبصق في وجه الرجل. زاعقا به إنه المكان الوحيد القذر الذي عثر عليه، ورآه صالحا لذلك"[3]. تفكير ديوجين عبثي لكونه لا يرى مانعا من البصاق في وجه كل من يظن نفسه مقدرا ومحبوبا وكريما، لا سيما وأن الحياة بنفسها فاقدة للمعنى، وغير مكرمة ولا ذات شرف. بل هذه الخصائص تظفر بها عندما يرغب فيها الإنسان، ويسعى للمحافظة على نفسه داخلها. تأسيسا عليه، كل من عليها لا يستحق التقدير. لذلك فمخاط ديوجين يستحق أن يلقى في وجه من يُمجد حياة لا تمجد، ويكرم ما لا يجب أن يكرم. فالبيت أفضل من صاحبه. ما هذه العبثية التي تنقلب في وجه الحياة. تغافل الرجل عن قيمته وعن قيمة ديوجين الذين لولاهما لما كان لأثاث البيت من معنى.

سعى سيوران إلى تكريس الاستهزاء من الحياة، والتقليل من شأنها حتى كتب له احتقارها لأبعد الأشواط، وطريقة استهزائه كامنة في تدليله على رأي ديوجين الذي عبر عن حقيقة الوجود العبثي بمرأى ومسمع الناس. فظل يمارس ما يراه مناسبا دون خوف أوتوجس من أحد. من مثل الاستمناء أمام الناس في الشارع العام، حمل المصباح وسط النهار، العيش في برميل... استهزأ ديوجين حتى من كونه إنسان مطلوب منه التعقل وليس الجنون. مطلوب منه العيش وسط القطيع، لذلك ربط نفسه بالكلب. خصوصا "إن إطلاق الكلب على أكبر خبير بالبشرية برهان على أن الإنسان ما انفك ينكر الحقائق بلا هوادة، ولم يملك أي وقت الشجاعة الكافية للقبول بصورته الحقيقية"[4]. اعتبر سيوران ديوجين أحد أكبر الصادقين الذين كشفوا حقيقة البشرية، ومن ثمة حقيقة الحياة، ووضعية الإنسان داخلها. وضعية رديئة ومأزومة لا مكان فيها للاحترام والتقدير، خصوصا وأنها سمات وشمائل يتصف بها الكاذبون والمنافقون... أولئك يحتجزون

1- Cioran, Emil: **A short history of Decay**. Tr: Richard Howard, (New York: Penguin Books. 1949). P.212.

2- Cioran, **La Tentation d'exister**, Op.cit. P.77.

3- سيوران: **رسالة في التحلل**، مرجع سابق، ص110.

4- المرجع نفسه، ص112-113.

أنفسهم بين السماء والأرض داخل أسوار بنوها بأنفسهم، ولا شجاعة لهم عن الخروج منها[1]. خوفهم سير العالم ضدهم. أشيائه لا تتشبث بهم ولا تخدم أغراضهم. وضعوا أنفسهم داخل لحود افتراضية صلبة من الداخل، وهشة من الخارج. " فلا شيء مما يخلق في الحياة ويمنحها نبلها إلا وهو يتقدم في اتجاه خاتمة مريعة أو تافهة"[2]. خاتمة سريعة لأنها تأتي على حين غفلة، وبعد مدة من التعود والألفة للحياة. تأتي لتقطع أي علاقة للشخص سواءً بذاته أو بمحيطه الطبيعي والثقافي، فما أهمية الوجود والحياة إن كانت منقطعة؟ يكشف لنا هذا الانقطاع عن عدم جدوائية فعل التملك في ارتباطه بالأشياء أو بالأشخاص أو بالجماعات. فالمتبقي بعد هذه النهاية الحتمية هو الفراغ والعدم والموت، ما يعني أن التملك في أصله هو لا تملك. ولما كان التملك يضيع الأشياء أثناء تملكها فإنه من الأفضل عدم التملك من الأساس. وعليه، تصير كل التملكات واللذات بلا معنى، "تشبه تأوهات الباغية أثناء ممارستها الجنس مقابل المال"[3]. تجسد دور المنتشية المتملكة للرغبة، والحال أنها تؤدي ما عليها بمقابل. الحياة من نفس الطينة نعيشها ظنا منا أنها تبادلنا نفس الشعور فتتقاسم معنا أشيائها، وفي كثير من المرات تتنازل طوعا عن ملذات ورغبات وأفراح...مقابل أن تسعدنا. بينما هي لا تشعر بأي شيء مثل الباغية تؤدي دورها مقابل الارتباط والوفاء لها.

تشبيه سوران للحياة بالباغية الداعر اللاهية، يبين نظرة إيميل المحتقرة لحياة ما بعد الولادة، وميله للتخلص منها، وذلك يتأتى أولا بمعرفة زيف لذاتها ورغباتها. وثانيا بالتأكيد على تلاعبها بمشاعر وأفكار من يعيش داخلها. وثالثا بقدرتها على إظهار عكس ما تبطنه، إذ تظهر الود والقربى وتبطن الكره والحقد[4]. ولئن حذرنا سيوران من غوايتها فإنه وضعنا أمام خيارين إما الزهد فيها وفي جمائلها أو ملاحقتها والبحث عن إشباع رغباتها عبر الانغمار كليا في مواضيعها. لا ترتهن الخيارات بالأفق الثالث خارج الاحتمالات المفروضة. كما لا تأخذ الحياة بعين الاعتبار الحرية الإنسانية التي تمنحه إمكانية اختيار مصيره، وتغير شكل ومسار حياته. هذا اللامتوقع هو الذي يحول مصير الذوات ومعها مصير العالم. ففي آخر المطاف لم يتصور سيوران الإنسان مثل الأحجار والأشجار والحيوانات محكومة بقوانين الطبيعة والغريزة. يكتب سيوران: "إذا كانت الحياة تحتل المرتبة الأولى في سلم الأكاذيب فإن الحب يتلوها مباشرة، باعتباره كذبة داخل الكذبة "[5]. الحياة كذبة لأنها لا تدوم، وكذلك لكونها مجال لخلق الأوهام. بداية من الولادة ونهاية عند الموت. لذلك اعتبرها سيوران مرض بلا مرض. القاطن فيها مريض بدون مؤشرات ومظاهر العلة. لئن ظهرت هاته العلامات فإنها تتلبس بالمجتمع ومؤسساته وأجهزته وقوانينه وتشريعاته، وعلى الطبيعة بأحكامها وسننها، وعلى الإله بأديانه وتوصياته. الكل يحط من قيمة الحياة ويُحذّر من مغبتها.

1- يمكن مشاهدة مسلسل "هجوم العمالقة" Attack on Titan يحكي باختصار عن صراع قبيلين. كل منها تربي الكره والحقد تجاه الأخرى باعتبارها مصرا للشر في العالم. أي ان المسلسل يصور لنا نسبية القيم والمثل الأخلاقية.

2- سيوران: **رسالة في التحلل**، مرجع سابق، ص129.

3- Sora, Cioran jadis naguère, Op. Cit. P.61.

4- Ibid. P.38.

5- سيوران: **رسالة في التحلل**، مرجع سابق، ص147.

لا يتوانى سيوران بدوره عن رفض الحياة وإن اختلف منطلقاته عن مسلمات الدين والمجتمع. المنطق الداخلي الذي حكم سيوران هو النظر النقدي في الحياة من الداخل، وذلك عبر كشف سلبياتها الكثير وعلى رأسها عدم قدرتها على تحقيق كل الرغبات والحاجات الفردية والجماعية، إذ جل ما تستطيعه كامن في إشباع بعض المطالب الضرورية للبقاء[1]. بينما تنتهج سبيل الدعوة إلى الصبر على باقي الرغبات، والتدرب على السيطرة عليها وترويضها. وكأن الكائن لا يحتاجها أو في غنى عنها، حتى إذا لم يجدها فعليه بالبحث عن البديل. وهكذا تقل طموحات وأحلام الأشخاص إلى مستويات دنيا تتجسد في المحافظة فقط على الحياة. وحتى هذا المطمع لا يتوفر لهم، إذ ما يفتأ يرين عليهم الموت. يعلق إيميل بالقول: "المجتمع لا يتحملكم إلا إذا كنتم على التوالي خاضعين ومستعبدين. إنه سجن بلا حراس لا مهرب منه إلا إليه"[2]. يواصل المجتمع في نظر سيوران التغطية على أزمة الولادة وستر عيوبها، وذلك بأن يعمل على ترسيخها داخل الحقل الاجتماعي، ليصير للشخص انتماءين للحياة: انتماء إلى وطنه الحياة/الطبيعة، وإلى وطنه الحياة/المجتمع. فوجود الحياة واستمرارها رهين بعد الولادة باستقبال المجتمع لهذا المولود وتربيته وتعليمه واشباع بعض حاجياته، وصقل حبه وتعلقه بالحياة. فترة المجتمع فقرة ربط للأفراد بعالم غير أصلي، يحاول أن يكون بديلا عن حياة ما قبل الولادة. يحاول أن يثبت نفسه بقوة فيغدق على الأفراد كل الملذات والرغبات.... في هذه الفقرة الاجتماعية أيضا يشجع على الولادة، وينظم الفعل الجنسي بواسطة الزواج. ما يعني أن انتقاد سيوران للمجتمع يتحول إلى هجوم عليه وعلى سلبياته[3]. فلا يرى الفيلسوف الروماني أي فارق بين سلبيات الولادة وسلبيات العيش في المجتمع كلاهما يدمر حياة الشخص، كلاهما يتحكم في مصير الشخص ويسيطر على حياته.

بناءً على ما سلف، أول ما يجب التخلص منه للقضاء على الولادة ومثالبها، والحياة وسلبياتها هو المجتمع. تنقلب إيجابيات المجتمع إلى سلبيات، فالأكل سلبيته الجوع، والشرب سلبيته العطش، والعادات سلبيتها تعطيل التفكير، والديانة سلبيتها الكفر... كلها تسعى للمحافظة على البقاء وإن اختلفت في أسسها ومنطلقاتها...إذ لو تمت الولادة خارج المجتمع لما كان للحياة أي قيمة، ولما حسم الموت المعركة لصالحه بسهولة. تَحامل المجتمع على الموت أدى إلى انتصار الحياة بمثالبها وسلبياتها. إن وجود المجتمع غير محايد يصطف لصالح الحياة. يصرح سيوران: "يسهل على الخيال أن يتصور مستقبلا يهتف فيه البشر بصوت واحد: نحن الأخيرين تعبنا من المستقبل وتعبنا من أنفسنا أكثر. امتصصنا عصارة الأرض ونهبنا السماوات لا المادة ولا الفكر ولا المجتمع تستطيع الاستمرار في تغذية أحلامنا"[4]. بعد هذا تتأكد حقيقة واحدة أمام سطوة الموت هي هشاشة الحياة. نتجه حسب هذا المنطق إلى الإنسان الصامت العاري والضعيف، إنسان ما بعد الموت. تمنى سيوران أن تتحول لحظة وعيه بهذه الحقيقة إلى إدراك حياة ما قبل الموت التي تشبه

1- Sora, **Cioran jadis naguère**, op. Cit. P.50-51.

2- سيوران: **رسالة في التحلل**، مرجع سابق، ص182. سيوران: المياه كلها بلون الغرق، مرجع سابق، ص101.

3- Laignel-Lavastine, Cirion, Eliade. **L'oubli du fascisme**, Op.cit. P.45.

4- سيوران: **رسالة في التحلل**، مرجع سابق، ص203.

كثيرا حياة ما بعد الموت. وإن كان لا يحدد لها حيزا ومكانا أو شكلا أو طعما أو رائحةً، وذلك خوفا من أن تكون حياة حالمة وخيالية تشبه كثيرا حياة اليوتوبيات الحالمة. توجس سيوران من الوقوع في نفس مأزق هاته اليوتوبيات[1]. الأمر الذي يؤكد إن فلسفة إميل على وعي بهذه اللحظة، ومعرفة بضرورة التحوط منها.

يقترح سيوران، الذي يعيش حياته وسط المجتمع، مزجها بالموت، وذلك بجعلها مجرد تجربة احتضار مؤقت في انتظار إتمام الموت لمهمته في إعدام عذابات الحياة. الاحتضار -في نظر سيوران- دربة وتعود على الموت القبلي، يُدرسنا كيفية الموت الهادئ والقوي في ذات الآن. وعن حق يكتب الفيلسوف الروماني: "ليتني أستطيع أخذ كل العالم إلى لحظة الاحتضار لتطهير الحياة من جذورها. سأضع لهبا، ليس من أجل تدمير الحياة، ولكن لتوصيل طاقة وحرارة مختلفة لها. النار التي سأشعلها في العالم لن تؤدي إلى خرابه، لكن ستحدث فيه تحولات كونية جوهرية"[2]. احتراق الحياة لحظة من لحظات امتحانها على مدى قدرتها على مقاومة الموت. فعند الجوع والمعاناة والمقاساة... يشعل الموت ناره فيها. بالإضافة أن النار استعارة على شدّة الاختبار والامتحان لمدى جدّية الحياة، وحقيقتها هي أيضا تتأسس على وظائف إصلاحية تعدل في الجوانب السلبية للحياة بأن تزرع ثقافة اللامبالاة. فمع النار نتعلم أن كل شيء قابل للتبخر والتحول إلى رماد. النار ههنا تفيد رمزيا كل المشاعر والعواطف والأفعال التي اعتبرها المجتمع وعادات الناس وديانتهم وأخلاقهم سلبية، فدعت إلى التخلص منها. إن امتحان الحياة إما يخلصنا منها ومن عذابتها أو على الأقل يضعفها وينهكها من الداخل. النار تسوق الحياة للاحتضار بما هو تحمل لكل أشكال العذاب عند الحدود بين الحياة والموت[3].

يفيد إذن الاحتضار تقدم الموت بخطوات على الحياة أو قل هو محاولة إنهاك وتضعيف للحياة، يسوقها إلى الجنون، لتمسي غير مطاقة أبدا. لعل من أدوار امتحان الاحتضار أيضا أنه يشعرنا بالمنزلة الحقيقية للحياة، ويبسط أمامنا حقيقة الموت. "الاحتضار بداية تفكك الحياة وانهيارها الوشيك"[4]. الاحتضار مرض يضعف كل مقاومة الموت، ويسلم الذوات للأفق المفتوح أمام اللاتوازن. تبعا لذلك، أوجاع الاحتضار توقظ نور المعرفة، إذ لن يكون بمستطاع الشخص العادي في صحة جيدة أن يستمتع بالحياة وبملذاتها (أغلب الناس يعيشون هذه الحالة) أن يفهمها ويفهم أدوار الاحتضار. لا يتوقع سيوران من هؤلاء الشيء الكثير، بل يتنبأ بأدوارهم السلبية في تعطيل الوعي البشري، وعرقلة تقدمه إلى الموت. إنهم يحملون مشاريع الخلود، وقد يكون من هؤلاء علماء وأطباء وحتى فلاسفة[5].

---

1 - Laignel-Lavastine, Cirion, Eliade. **L'oubli du fascisme**, Op.cit. P.28.

2- سيوران: **المياه كلها بلون الغرق**، مرجع سابق، ص26.

3 - Cioran, **A short history of Decay**. Op, Cit. P.177.

4- Cioran, **La Tentation d'exister**, Op.cit. P.32.

5- Cioran, Emil: **Entretien**. (Paris, Gallimard, 1995). Pp.110.

كل التجارب الأصلية هي التي تأتي من داخل الحياة؛ أي من صميم أوجاعها ومآسيها وأحزانها[1]. حقائق الحياة تنجلي مع بداية الاحتضار، وتنكشف أمام وعي مأزوم وضع في حالة لا توازن وظيفي، ونقصد أن كل أعضائه الجسدية من العيين والأذنين والأنف والأقدام والأيدي...مساندة للحياة، ومعانقة للعيش، حتى إذا ما اختل توازن أي عضو فلم يعد بقادر على أداء دوره تم إصلاحه بسرعة من أجل العودة لمعانقة الحياة. تبعاً لذلك، يطالبنا سيوران بالانفصال أوليا عن هذه الحواس، وتاليا عن الجسم، من أجل أن يتخفف الوعي من ثقلها، وينكب على تأملها في تجرّد وموضوعية. بمعنى آخر؛ إجهاد الحواس واتعابها يسهم في تسريع وثيرة الوعي بدونية حياة ما بعد الولادة، والمرض يخفف من الايقاع السريع والمتواتر للحياة. يقول سيوران: "يجعلك التعب تعيش أعلى من قيمة المعتادة للحياة، ولا يمنحك سوى استشعار الضغط الحيوي"[2]. يستنزف كل من المرض والتعب والاحتضار رصيد الحياة، ويعمل ضد أدوار المجتمع، بأن يبين ضعفها وسهولة اختراقها على الرغم من المقاومات والمجاهدات التي تبذلها كل عضوية من أجل البقاء. تسمى هذه المقاومة والمجاهدة عند سبينوزا بالكوناتوس Conatus وعند نيتشه بإرادة الحياة La volonté de paissance.

كل هذه المكونات تهز الحياة من الداخل، وتشكك في أهميتها وقيمتها، كما تزرع بين عناصرها بذور الخلاف والتوتر. فتظهر الاختلاف والتعارض القائم بين هذه المكونات، وتبشر بقرب تفككها. هويتها أضعف من أن تتحمل صراع هذه المكونات المتعارضة. يستغل الموت تعارض هاته المكونات ليفككها من الداخل، ويَمعن في نسف العلاقة بينها، وتعطيل وظائف كل منها. يحجم دور كل عضو، ويعزله عن باقي الأعضاء. مما ينذر بضياع هذه الوظائف كلياً أو جزئياً، وحاجة كل منها للأخرى. يفهم من ذلك، أن مصيرنا يرتهن بمدى قدرة كل عضو على تأدية دوره داخل هذا الكل الجسمي على أحسن وجه. لا يستسيغ سيوران أن يرتبط مصير كينونة كل كائن بغير إرادته الحرة والمستقلة. أمام هذا يستنتج الفيلسوف الروماني أن الحياة بهذه المواصفات لا تستحق أن نضحي من أجلها رغبة في سعادتنا. والحال ألا وجود للسعادة فوق حياة شيدت على سطح مقبرة من الموتى.

1- Cioran dit : "En même temps j΄avais une forte vitalité que j΄ai gardée et que je retourne contre elle-même. Il ne s΄agit pas d΄être plus ou moins abattu, il faut être mélancolique jusqu'à l΄excès, extrêmement triste. C΄est alors que se produit une réaction biologique salutaire. Entre l΄horreur et l'extase, je pratique une tristesse active. J΄ai pendant longtemps trouvé Kafka trop déprimant", Ibid, P.6.

2- سيوران: **المياه كلها بلون الغرق**، مرجع سابق، ص46.

5- خاتمة

إلى أي حد تمكن سيوران من مقاطعة الحياة؟ هل توفق في إعادة النظر في معنى الإنسانية؟ كيف السبيل لتقليل معاناة الحياة؟ قد لا نتوقف عن طرح الأسئلة وفتح الإشكالات، غير أننا سنخرج بخلاصات لعلها تقدم لنا صورة مبدئية عن فيلسوف قل البحث فيه، وندر تواجده في الساحة العربية. وهي:

- يربط سيوران الحياة والموت برباط متماسك، لدرجة أنه تصور وجود الحياة من أجل الموت، وتمثل الحياة مجرد مرحلة من مراحل الموت. وبالتالي فالموت هو الحقيقة الوحيدة التي يمكن استخلاصها من هذه السنوات المتراكمة من الحياة.
- تفقد الحياة معناها عند الحي عندما يَكتشف أهوالها ومعاناتها، فلا سعادة تتحقق ولا اشباع يتم ولا رغبات تشبع. إن قلنا الحياة قلنا مزيدا من المعاناة والأمراض والأحزان المستمرة والمتزايدة بلا انقطاع، لا تتوقف هذه الأشياء إلا بالموت المخلص الوحيد.
- نظر سيوران إلى الانجاب في علاقة بالحياة، إذ ديمومة الحياة مرتبطة بالولادة والانجاب، بما يعنيه ذلك من إحضار لأطفال بغض الطرف عما تسببه الحياة لهم من معاناة ومشاق وإحباط، فلولا الولادة لما كانت حياة، ودونها لم يكن للإنسان أن يوجد. ألا يعني هذا دعوة صريحة إلى تدمير الإنسانية وإيقاف عجلة نموها واستمرارها؟
- أخيرا رفض سيوران رفضا مطلقا تمثل الإنسانية في ارتباطها بعادات وتقاليد المجتمع، وفي انتسابها بالضرورة إلى وطن يشكل هويتها. وذلك لما فيه من تضيق لمعنى الوجود البشري وحصره في انتماءات مغلقة، تحرك النعرات الإثنية، وتشعل الصراعات الدينية واللغوية...

قد نلاحظ في الأخير أن فلسفة سيوران تأثرت كثيرا بسوداوية الرجل، وعلاقاته المتوترة مع محيطه، لذلك لا يعني أن سلبيات الحياة مدعاة لمخاصمتها ورفضها من الأساس، بقدر ما يعني أنها إعلان عن نقط ضعفها القابلة لتصحيح مسارها وتحسين جودتها. الأمر أشبه بمن يرفض أخذ العلاج لتأثيراته الجانبية أو من يرفض ركوب السيارات أو القطارات أو الطائرات لحوادثها المروعة. أما الموت فهو حقيقة وحيدة تدعونا لعيش الحياة بالطول والعرض.

قائمة المراجع:

باللغة العربية:

1- جيرار، رونيه: ***العنف والمقدس***، ترجمة: سميرة ريشا، ط1 (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2009).

2- دولوز، جيل، غيتاري، فليكس: ***ما هي الفلسفة***، ترجمة: مطاع صفدي، ط1 (بيروت: مركز الانماء العربي، المركز الثقافي العربي، 1997).

3- ريكور، بول: ***الذاكرة، التاريخ، النسيان***. ترجمة: جورج زيناتي، ط1 (بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2009).

4- ريكور، بول: ***من النص إلى الفعل***، ترجمة: عبد الحي أزرقان، ط1 (الرباط: دار الأمان، 2022).

5- سيوران، إميل: ***اعترافات ولعنات***، ترجمة: آدم فتحي، ط1 (بيروت: منشورات الجمل، 2018).

6- سيوران، إميل: ***المياه كلها بلون الغرق***، ترجمة: آدم فتحي، ط1 (بيروت: منشورات الجمل، 2003).

7- سيوران، إميل: ***تاريخ ويوتوبيات***، ترجمة: آدم فتحي، ط1 (بيروت: دار الجمل، 2010).

8- سيوران، إميل: ***تمارين في الإعجاب***، ترجمة: آدم فتحي، ط1 (بيروت: منشورات الجميل، 2021).

9- سيوران، إميل: ***دموع وقديسون***، ترجمة: عبد الوهاب ملوح، ط1 (بيروت: دار صفحة 7 للنشر والتوزيع، 2020).

10- سيوران، إميل: ***رسالة في التحلل***، ترجمة: آدم فتحي، ط1 (بيروت: منشورات الجمل).

11- سيوران، إميل: ***غسق الأفكار***، ترجمة: عبد الوهاب الملوح، ط1 (بيروت: دار صفحة سبعة للنشر والتوزيع، 2020).

12- سيوران، إميل: ***لو كان آدم سعيدا***، ترجمة: محمد علي اليوسفي، ط1 (عمان: أزمنة للنشر والتوزيع، 2014).

13- سيوران، إميل: ***مثالب الولادة***، ترجمة: آدم فتحي، ط1 (بيروت: منشورات الجمل، 2010).

14- هيدجر، مارتن: ***إنشاد المنادى، قراءة في شعر هولدرلن وتراكل***، ترجمة: بسام حجار، ط1 (بيروت: المركز الثقافي العربي، 1994).

باللغات الأجنبية:

1- Bollon, Patrice : **Cioran, l'hérétique**, (Paris, Gallimard, 1997).

2- Cioran, Emil: **A short history of Decay**. Tr: Richard Howard, (New York: Penguin Books. 1949).

3- Cioran, Emil : **De l'inconvénient d'être né**. (Paris : Gallimard, 1956).

4- Cioran, Emil : **Ebauches de vertiges**. (Paris, Gallimard, 2004).

5- Cioran, Emil : **Entretien**. (Paris, Gallimard, 1995).

6- Cioran, Emil : **La Tentation d'exister**, (Paris : Gallimard, 1956).

7- Cioran, Emil : **Syllogismes de l'amertume**. (Paris : Ed Gallimard, 1987).

8- Deleuze, Gilles, Guattari, Félix : **Mille Plateaux**. (Paris : Ed de Minuit. 1980).

9- Laignel-Lavastine **: Cioran, Eliade. L'oubli du fascisme**, (Paris : P.U.F, 2002).

10- Maire, Corrine : **Quarante raisons de ne pas avoir d'enfants**, (Paris : Michalon. 2007).

11- Ricœur, Paul : **Le conflit des interprétations**. (Paris : Ed du Seuil. 1969).

12- Sora, Mariana : **Cioran jadis naguère**, (Paris, de L'Herne, 1988).